جبلة، وبروز دوره كرجل مصلح، ينهج نهج جمال الدين الافغاني ويستلهم دروس ثورة عرابي وأفكار مصطفى كامل ورفاعة الطهطاوي، الامر الذي يؤكد انتماء القسام الى «تيار الجامعة الاسلامية» بما يتمتع به هذا التيار من عودة واضحة بالاسلام الى أصوله، واسقاط البدع والخرافات، ونبذ الطائفية، واستلهام سيرة الرسول محمد (صلعم) واعتبار الثورة على الاستعمار واجباً وطنياً جهادياً، والتوفيق فيما بين الاسلام والقومية.

ومن خلال رؤية القسّام النظرية، تطرق الكتاب، الى بدايات نضالات القسام بدءاً من قيادة التظاهرات، اثر محاصرة الاسطول الايطالي لطرابلس الغرب سنة ١٩١١، مروراً بانخراطه في مقاومة الاحتلال الفرنسي منذ ان وطأت اقدام جنوده الساحل السوري سنة ١٩١٨، الى ان حسمت معركة ميسلون، في الرابع والعشرين من تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠، مصير الحكومة الفيصلية. وأشارت الكاتبة الى ان التطرق الى الاحداث آنفة الذكر يأتي في سياق تأكيد جذور الجهاد في نفس القسام.

وبانتهاء مرحلة نضاله في سوريا، انتقل القسام الى فلسطين، لقربها ومتاخمتها الحدود السورية، من جهة، ولخروجها عن اطار الهيمنة الفرنسية، من جهة أخرى، واستقر في حيفا، حاملاً معه خلاصة تجربته الكفاحية، بكل ذكرياتها وعبرها.

حسب ما ورد في الكتاب، وصل القسام حيفا في العام ١٩٢٠، وذلك استناداً الى وثيقة موقّعة في ٥/٤/١٩٢٠، من وجهاء المسلمين في حيفا، مرفوعة الى المندوب السامي، تطالبه بتعيين الحاج امين الحسيني مفتياً للقدس. وتتضمّن الوثيقة توقيع القسام، الذي كان مدرساً في مدرسة البرج الاسلامية، التي انشأتها الجمعية الاسلامية في حيفا في مطلع العشرينات. ومنذ العام ١٩٢٥، أصبح القسام اماماً لجامع الاستقلال. ومن خلال خطبه، أصبح هذا المسجد أكثر المساجد شهرة في فلسطين؛ وفيه، ومن خلاله، تعرّف القسام على أعضاء خلاياه الاولى.

ولعل ما أعطى القسام فرصة أكبر لتنظيم قواه، هو انه، في أواخر العشرينات، عيّن من قبل المحكمة الشرعية في حيفا مأذوناً شرعياً، الأمر الذي أتاح له الاتصال الدائم مع الناس، ودخول بيوتهم، والتعرف اليهم، ومن ثمّ تنظيم قواهم، وتدريبهم سراً. وأشارت الكاتبة، في فقرة خاصة، الى التسميات التي ظهرت بعد استشهاد القسام والتي جاءت من مؤيديه، أو من اولئك الذين نهجوا نهجه، خاصة ابان الثورة الوطنية الكبرى ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩، مثل تسمية «القساميون» أو «عصبة القسام» أو «جماعة القسام». وتتعرض هذه الفقرة الى الوسائل الداخلية السرية لتنظيم القسام، والتي تقدر الكاتبة عدده، وفقاً لمقابلات شخصية مباشرة اجرتها مع بعض «القسّاميين»، الى نحو المئة. وان تنظيم القسام اعتمد على تبرعات الاعضاء، والاعضاء المؤازرين. ويبرز الكتاب عمليتين لـ «القساميين» قبل معركة يعبد: الاولى حصلت في ليل ٢٢/١٢/١٩٣٢، اذ تمّ القاء قنبلة على منزل يوسف يعقوبي في مستعمرة نحلال، أدت الى مقتله وابنه، وقد أثارت هذه العملية السلطات البريطانية، فأعلنت عن مكافأة قدرها خمسمئة جنيه فلسطيني لأي شخص يدلي بمعلومات عن الحادثة؛ امّا العملية الثانية، فوقعت عندما قام بعض «القساميين» بنصب كمين على طريق الناصرة، قاده عبدالله حوراني ومحمود زعرورة، وهاجم القساميون فيه عربة تجرّها البغال، ممّا أدى الى مقتل احد عشر مستوطناً صهيونياً. وبعد هاتين العمليتين، حصلت معركة يعبد.

وعلى الرغم من استشهاد القسّام خلال هذه المعركة، الّا انها شكّلت المقدمة الاساسية لاشعال الثورة العربية الكبرى في فلسطين. حتى ان اولى عمليات الثورة قام بها «القساميون» أنفسهم، خلال ليل الخامس من نيسان (ابريل) ١٩٣٦؛ اذ هاجم ثلاثة من «القساميين» قافلة صهيونية على الطريق العام بالقرب من عنبتا ـ قضاء نابلس. وقد عرف، فيما بعد، ان المهاجمين كانوا بقيادة الشيخ فرحان السعدي. وأشارت الكاتبة «من خلال قراءة الاحداث المتلاحقة» الى «ان القساميين ارادوا تحدي الائتلاف الحزبي، وتحدي أسلوب التفاوض السياسي، وهم الذين لم يوافقوا، يوماً، على مفاوضة الحاكم الاجنبي المستعمر، فكيف عندما لا يكون التفاوض أكثر من اعتذار لذاك الحاكم». كذلك تطرّقت الى دور القساميين في ثورة ١٩٣٦، والى ما انتهجه القساميون